رحـلة الســـادات وخطيئة العـــرب

اخر ساعة: 26-7-1978

بقلم: صلاح حافظ

قلب السادات المائدة، وأثار ارتباك العالم كله.

ذهب يزور إسرائيل، ويناقش أقطاب الصهيونية باسم مصر: أكثر البلاد العربية تعرضا لعدوانهم، وخسارة بسببهم، وتحديا، وصمودا فى وجههم.

ولم يكن هناك طبعا ما هو أكثر من هذا مدعاة للارتباك.

ولم يكن هناك من هو أكثر ارتباكا من الشارع العربى نفسه. ففى سوريا نكسب الأعلام، وفى العراق قامت مظاهرات، بينما هلل الشارع المصرى وعاش فى عيد حقيقى.

وفى صفوف الحكومات العربية كان ارتباك مماثل. فالزيارة يؤيدها السودان، ولكن السعودية لا تعلن رأيها صراحة فيها وسكت الأردن (أول دولة عربية فاوضت إسرائيل) أكثر من يومين قبل أن يقول بتحفظ أنه موافق عليها. وتعلن دمشق أنها ضد مبادرة السادات بينما تعلن بغداد أن دمشق تنافق لأنها اتفقت مع السادات على القيام بمبادرته.

أما فى صفوف الثوار فكان الارتباك أبلغ.

وكان من أغرب مظاهره رفض اليسار لتصرف السادات، مع أنه التصرف الذى ناضل اليسار طويلا لكى يتم. فالماركسيون الذين يمثلون فرقة أساسية فى حزب اليسار الآن كانوا التيار الوحيد الذى طالب فى عام 1948 بقبول تقسيم فلسطين، والاعتراف بالدولة الإسرائيلية والعربية على أرضها. وبسبب هذا الموقف دخل الماركسيون السجن، واتهموا بأنهم عملاء للصهيونية والشيوعية معا. وبعد ثورة يوليو كان أول من وجه دعوة للحوار المباشر مع إسرائيل هو المرحوم يوسف حلمى، رجل السلام اليسارى. وبسبب هذه الدعوة عاش طويلا خارج مصر، ممنوعا من دخولها. وبعد يوسف حلمى كان أول من

جرؤ على إقامة حوار علنى مباشر مع شخصية صهيونية هو اليسارى المعروف سعد كامل. أجرى هذا الحوار أمام عدسات التليفزيون فى باريس، ثم عاد إلى مصر واثقا من أن السجن ينتظره.

وعلى ضوء هذا التاريخ كان مفروضا أن يكون اليسار. أو على الأقل الماركسيون. أول من يبتهج لمبادرة السادات، ويتباهى بأنه نادى بذلك منذ ثلاثين عاما كاملة.

لكن اليسار كان على العكس الرافض الوحيد- من بين الأحزاب الشرعية فى مصر- لزيارة السادات.

ولم يكن حال اليمين أفضل. فهو الذى تصدى فى عهد فاروق لقتل دولة إسرائيل فى المهد. والقذف بها إلى البحر. وهو الذى تمسك بأن يكون اسمها دائما (إسرائيل المزعومة). وهو الذى اعتبر قيامها تحديا دينيا لا يجوز لمسلم أن يسكت عليه. وهو الذى اعتبر أى كلام عن اليهود كبشر، وأى اقتراح بالتفاوض معهم (ولو من خلال وسيط) دعوة شيوعية، صهيونية.

ولكن هذا اليمين نفسه، وباسم الحزب الشرعى الوحيد الذى يعبر عنه فى مصر، كان أول من أيد زيارة السادات لإسرائيل، واعتبرها فتحا فى عالم السياسة والنضال من أجل السلام فى منطقة الشرق الأوسط.

وهكذا.. من الشارع إلى القادة، ومن مصر إلى العرب، كان الارتباك شاملا منذ قيام السادات بزيارته لإسرائيل.

لكن أخطر مظهر لهذا الارتباك هو بالتأكيد انقسام الشارع العربى.

الانقسام

لم تصنع هذا الانقسام زيارة السادات. وإنما جاءت الزيارة مناسبة يفصح فيها عن نفسه، ويوقظ من النوم الذين تظاهروا طويلا بأنه غير موجود.

قبل زيارة السادات لإسرائيل، كان العالم العربى السعيد ببتروله قد استقر على صيغة معينة يتعامل بها مع مصر: صيغة يتلهى فيها بإذلال "الشقيقة الكبرى"، ويتندر على

فقرها، ويعطف عليها مع الضيق من كثرة مطالبها. صيغة لا يبخل فيها بالصدقة، ولكن بقدر ما يروق له، وبقدر ما يجعلها بالكاد تأكل، وبالكاد تشترى بندقية من هنا ورصاصة من هناك.

وعندما طالت المعركة التى تخوضها مصر أمام صهيونية إسرائيل وعدوانيتها وأسلحتها التى تتراكم فى المخازن تحت الأرض وفوق الأرض، بدأ أثرياء العرب يملون. وانحدر الحال إلى الحد الذى جعل المصرى يوصف فى بعض صحف العرب بأنه خادم، وبأنه حين يحافظ على كرامته، إنما يرتكب جريمة التطاول على أسياده.

هل كان يمكن أن يستمر وضع كهذا دون أن يحدث انقساما بين مشاعر الشارع المصرى والشارع العربى؟

ثم أن مصر الرسمية، على رغم هذا، فتحت الباب للمال العربى على مصراعيه. وأعفته من التزامات أى مال يستثمر فى أى أرض. فإذا بهذا المال ينصرف إلى الكسب من مصر، لا إلى تنمية مصر. وإذا به يهدى المصريين مشاريع مدن سياحية لا يدخلونها، وعمارات لا يسكنونها، ومتاجر تبيع مالا يعرفون اسمه ولا يملكون ثمنه، فكأنما فقر مصر– الناجم عن تضحياتها – فرصة لإعادة استعمارها من جديد. وكأنما تخلصت مصر من الخواجة الإنجليزى لكى يحتل مكانة الخواجة العربى الشقيق.

هل كان يمكن أن تستثمر علاقة كهذه، بين مصر والعرب، دون أن تعود إلى انقسام؟

ثم جاء الذى زاد وغطى.. عندما شكلت مجموعة من الدول العربية "جبهة رفض" لأى حل سلمى مع إسرائيل، وجعلت شعارها أنه لا حل إلا بالقوة العربية والإرغام بالسلاح. لكن الشعب المصرى كان يلاحظ أن هذه الدول بالذات هى المنصرفة تماما إلى تعمير نفسها. وليس فيها دولة واحدة.. تنفق نصف دخلها على التسليح كما تفعل مصر. وإنما هى تنفق فقط، ومن بترولها الغزير، على إنشاء المساكن والمزارع والمناجم والطرق والسكك الحديدية. والشعب المصرى ليس غبيا، ولا يمكن أن يستسيغ نداء للحرب يصدر

عن أشقاء ينفقون كل دخلهم على البناء.. بينما يؤجل هو خطط التنمية جميعا، بل ويقتطع .. لقمة الخبز اليومية، لكى ينفق على الحرب.

والتعريف الواقعى لها هو أنها محاولة لاختصار المعركة العربية الإسرائيلية، وتجربة سلاح جديد يقرب الوصول إلى أهدافها: هو التأثر على الخصم نفسه.

وقد ذهلت إسرائيل بقدر ما ذهب العرب عندما قرر السادات الإقدام على هذه المحاولة. ولكن .. ما أبعد الفرق بين رد الفعل الإسرائيلى ورد الفعل العربى.

فى إسرائيل درسوا أخطار الزيارة عليهم، ووضعوا خطة لتجنبها.

ورسموا مزاياها لهم، ووضعوا خطة لاستثمارها. لم يتركوا مصر تفوز أمام العالم بصورة الداعى إلى السلام، وإنما ظهروا معها فى الصورة برزوا بكافة الوسائل أن السلام حلمهم وبرنامجهم وبذلك تجنبوا خطر الزيارة على صورتهم العالمية. ثم انطلقوا بعد ذلك يستثمرون مزاياها، يحيطون جميع خطوات الزيارة بطقوس لا تتبع إلا بين دول تعيش فى السلام.

أما العالم العربى فانصرف عن الاستفادة من الزيارة إلى أدانتها. بدلا من أن يبدو أمام العالم داعية السلام، بدأ داعية لحق إسرائيل فى الخوف من العرب ونواياهم الرافضة للسلام.

وبدلا من أن تتجنب الدول العربية أخطار الزيارة، وتتصرف بحيث نجعل مكاسبها أكبر من خسائرها، مضت تتسابق إلى ضمان الخسارة المؤكدة، عن طريق الهجوم على مصر وعن طريق تصفية المعسكر العربى عمليا.. لأن لا قيام له بغير مصر.

وهكذا .. يكرر العرب اليوم نفس الخطيئة التى أضاعت فلسطين: يوم أصدرت الأمم المتحدة قرار تقسيمها، فتفرغ العرب لإدانته ورفضه، وتفرغ اليهود لاستثماره.

أن زيارة السادات لإسرائيل، أيها السادة، واقع تاريخى جديد تكررون معه نفس الخطأ أو نفس الخطيئة.

كل هذا كنا نقوله، فيغضب العرب.

وكل هذا كنا نحذرهم من نتائجه، فيصادرون الصحف التى تنشر التحذير. ثم يحتجون على الحكومة المصرية التى تسمح لمثل هذا الكلام بأن ينشر فى صحفها.

ثم ظهر أذكياء يتصورون أن المطالب بالالتفاف حول مصر، والتحذير من التخلى عنها، نوع من التهوين. وخيل إليهم أن وزن مصر، وثقلها، وضرورتها للمصير العربى، مجرد كلام، وأن من الخير للعرب أن يتخلصوا من أثقال مصر التى أصبحت من وجهة نظرهم- لا تطاق ولكن..

ما كاد يلوح، مع زيارة السادات لإسرائيل، أن مصر قد تلبى رغبة هؤلاء السادة وتتركهم فى حالهم.. حتى أصابهم جزع شديد.

ولم يهدئ من هذا الجزع أن السادات تمسك طوال زيارته بحق العرب، والتزم به، وأعلن أنه يرفض المساومة عليه. فمجرد قيامه بالزيارة كان مخيفا، لأنه يتضمن وهم الاتفاق المنفرد دونهم، وتركهم يحاربون المعركة على طريقتهم. وكان مجرد هذا الوهم بالنسبة لإليهم كارثة، وجريمة، وخيانة.. ونهاية العالم.

خطيئة العرب

أن هذه الحملة خطيئة كبرى، يكرر بها العرب خطاياهم السابقة التى أضاعت فلسطين.

فبهذه الحملة يرفض العرب استثمار الانقلاب السياسي التاريخى الذى حققه السادات فى الشرق الأوسط لصالحهم، وترك إسرائيل، تستثمره وحدها.

أن زيارة السادات لإسرائيل لم يحرمها قرآن ولا إنجيل. ولم تكبد العرب خسارة شبر من أرضهم الحالية.

أنكم مشغولون جدا بتعريفها، ومناقشة أنسب التعابير التى تصفها بينما إسرائيل منصرفة إلى دراسة الواقع الجديد الذى خلقته.. ووضع الخطط لمواجهته.

أن زيارة السادات لإسرائيل حدث من الضخامة بحيث يسمح للمؤيدين والمعارضين أن يواصلوا المناقشة وطرح الحجج بدون توقف. وإسرائيل لا تطمع فى أكثر من أن تظلوا مشغولين عنها بهذه القضية اللانهائية.

أن حدثا كهذا يحتم أن ينصرف العرب إلى إدراك أبعاده، ووضع الخط لاستثماره، والتلاؤم مع الظروف الجديدة التى خلقها.. إذا كانوا جادين حقا فى كسب قضيتهم.

ولا جدال فى أن هذه المهمة تشترك أن يضمن العرب أولا وجودهم. أى أن يعيدوا أولا لم يشملهم.

أن المخلص حقا للقضية العربية هو الذى يكافح اليوم لإعادة التماسك العربى بأى ثمن. وكل الذين يطلقون النفير الآن بالكلمات الطنانة الرنانة والشعارات التى ذهب وقتها لا يخدمون قضية العرب. فضلا عن أنهم فى حقيقة الأمر يكذبون: لأن الطريق الذى أراد السادات أن يختصره كان الطريق إلى الحلم العربى.. لا إلى الحلم الإسرائيلى.

أن الصف العربى يجب أن يلتئم من جديد. وقد يكون من حق أى عربى أن يعترض على الخطوة الجريئة التى قام بها السادات ولكن ليس من حق هذا العربى أ، يقول: لقد قام السادات برحلة ضارة، وبناء عليه يجب أن أمزق الصف العربى يتأكد الضرر.

أن هذه الزيارة. كمعظم الأحداث التاريخية، يتوقف أثرها على ردود الأفعال العملية تجاهها.

فنحن نملك أن نجعلها فرصة لتفسخ المعسكر العربى وانهياره، كما نملك أن نجعلها فرصة يكسب بها المعسكر مواقع جديدة فى معركته السياسية والفكرية ضد التعصب الصهيونى، الذى بدأ العالم فعلا يكتشف أخطاره ويفيق من تأييده السابق له.

أن السادات عندما قرر أن يزور إسرائيل لم يعرض للخطر أى حق عربى، ولم يغامر إلا بمستقبله الشخصى، فى سبيل الهدف العربى.

أما الحملة على السادات فتعرض للخطر مستقبل العرب جميعا، وتغامر بمصير الأمة العربية كلها.

والسادات لديه أكثر من حجة صحيحة ومقنعة تفسر أقدامه على هذه المبادرة التاريخية الجريئة ولكن خصومه ليست لديهم حجة تفسر إصرارهم على استثمار هذه الزيادة فى تصفية المعسكر العربى وإنهاؤه.

أيها العرب.... اتحدوا !

لا تمزقوا معسكركم بأيديكم.. ثم تتعزوا عن الكارثة، وتخدعوا ضمائركم، بإلقاء التهمة على السادات.

****

www.anwarsadat.org